التنقيب عن المعنى

التدارس الأدبيّ المَنجَميّ بوصفه
أسلوب حياة

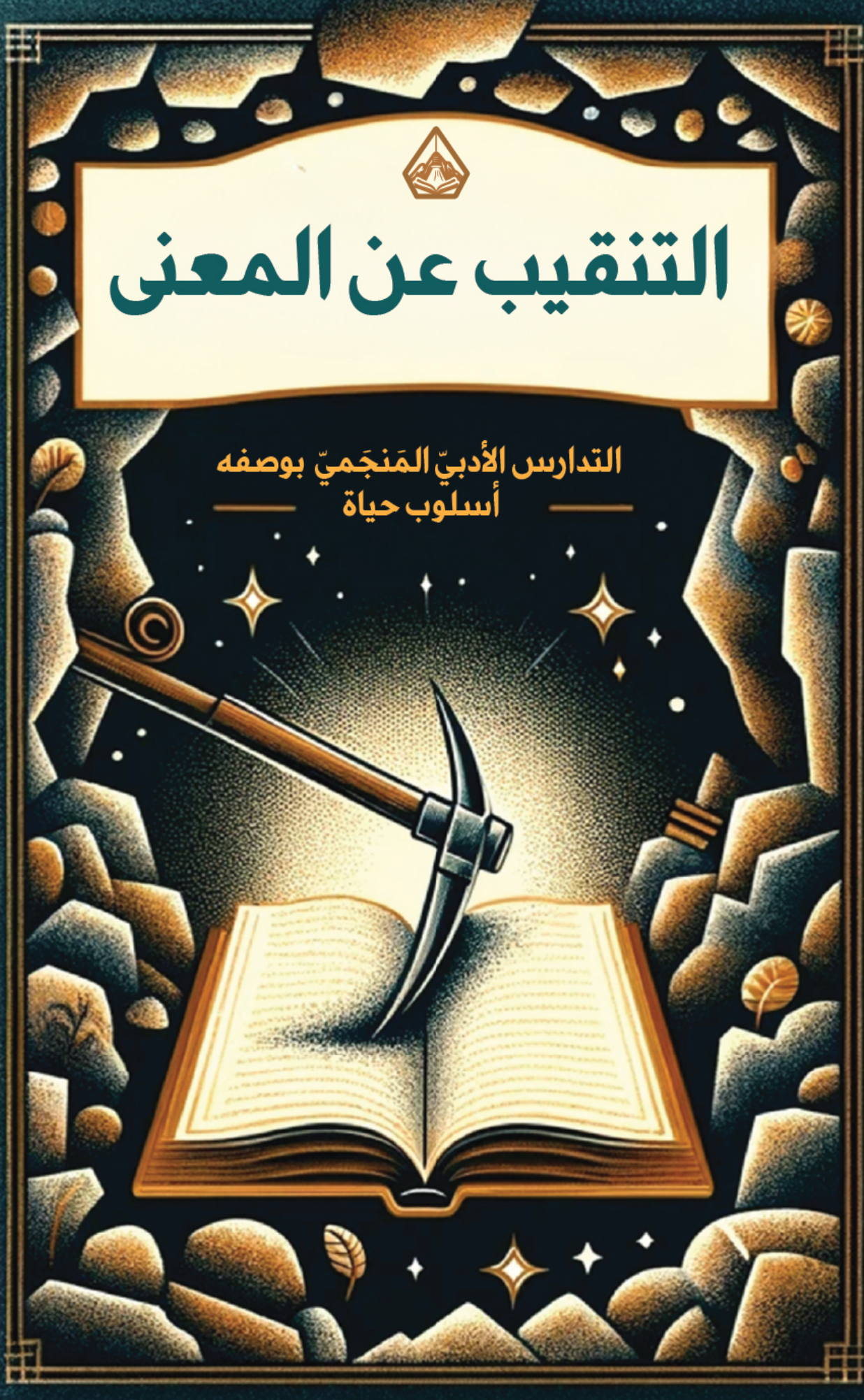

إهداء: إلى كلّ من رأى في الأدب حياة خلال الحياة وبعدها.

نورالدين زهير

المقدّمة | عفوًا... كيف تريدني أن أعيش؟

خلال تاريخ البحث الفلسفيّ، ظلّ هذا السؤال محوريًّا: كيف نعيش الحياة المثلى؟ إنّ ملاحقة الحياة الطيّبة أو الجديرة أو الفضلى أو السعيدة، الّتي تتجلّى في إجابات عديدة قدّمتها مدارس فكريّة مختلفة عن هذا السؤال، كان ممارسة فلسفيّة عريقة، ما يظهر سعي البشريّة إلى فهم أعمق لأنفسهم، وأحيانًا إلى توازن بين الاحتياجات المادّيّة والروحيّة.

منذ تأمّلات أفلاطون القديمة، الّذي افترض أنّ السعادة الحقيقيّة تتحقّق من خلال الانسجام بين العقل والروح والجسد، إلى اعتقاد أرسطو بأنّ الحياة الجديرة تكمن في ممارسة الفضيلة من خلال النشاط العقلانيّ، سعى الفلاسفة إلى فكّ رموز جوهر السعادة المكتملة. أكّد الرواقيّون على تحقيق السلام الداخليّ من خلال العيش وفقًا للطبيعة والعقل، في حين وجد الأبيقوريّون السعادة في السعي وراء المتعة وتجنّب الألم، لا سيّما من خلال الملذّات الفكريّة البسيطة. جادل الأفلاطونيّون الجدد بالاتّحاد مع الواحد باعتباره المصدر النهائيّ للسعادة.

مهلًا... لا أدّعي أنّني أقدّم سردًا شاملًا هنا، لكن من الجدير بالذكر أيضًا أنّ الأمر استمرّ حتّى

العصور الحديثة، إذ تطرح الفلسفات الوجوديّة أسئلة جديدة حول الحرّيّة والمسؤوليّة والعبثيّة، مع التركيز على دور الفرد في إعطاء حياته معنى. وهذا يتناقض بصورة حادّة مع وجهات النظر النفعيّة الّتي تحدّد الحياة الجيّدة بأنّها تعظيم السعادة لأكبر عدد من الناس. في المقابل، لم تزل دعوى الفلاسفة الكلبيّين ذات صدى في عالم اليوم، فهم ينادون بنمط حياة بسيط غير مادّيّ، مقترحين أنّ السعادة الحقيقيّة تأتي من البساطة. بينما رأى كانط أنّ الحياة الفضلى تتحقّق من خلال الالتزام بالواجبات والقوانين الأخلاقيّة.

وتتدخّل الخلفيّات الثقافيّة المتنوّعة في الأمر، مثرية الجدال بوجهات نظر أخرى حول السعادة. مثلًا، تؤكّد الفلسفة الطاويّة في الصين على التوازن والانسجام مع الطبيعة وتقليل الأثر، بينما يركّز الفكر الإسلاميّ على تحقيق السعادة من خلال العبادة والالتزام الأخلاقيّ والتكافل. تسلّط الفلسفات الهندوسيّة والبوذيّة الضوء على تحقيق الذات وكبح الرغبات كوسيلة لتحقيق السعادة. كذلك فإنّ سؤال السعادة لم يغب عن الفلسفة الدينيّة الغربيّة، لكنّها جاءت من خلال الاتّحاد مع الإلهيّ والالتزام بالمبادئ الدينيّة. يؤكّد الفكر الفلسفيّ الأفريقيّ على أهمّيّة

المجتمع والعلاقات الإنسانيّة في مفهوم الـ"أوبونتو" الضروريّ للحياة الحقّة... إلخ، أي إنّ هذا السؤال لم يغب عن الإنسانيّة منذ فجرها الأوّل، ولا هو حُسِم بإجابة قاطعة.

تعدّى هذا السؤال الفلسفة إلى حقول أخرى، رآها خلق كثير على أنّها هي الحقول المعنيّة حقًّا به، فتشابك البحث عن السعادة مع البحث عن المعنى والتكامل بين العمل والحياة الشخصيّة في مدارس علم النفس وحتّى علوم الأعصاب والدماغ، كذلك مع مدارس الإدارة وكيفيّة زيادة الإنتاجيّة. كما لا يمكن فصل هذا السؤال عن تشابكه مع السياسة ومدارس الاقتصاد العديدة والأيديولوجيّات المختلفة، وحتّى الزمر الدينيّة المتطرّفة، كلّهم يبحثون بطريقة أو أخرى عن سعادة الإنسان أو عيشه حياة جديرة. لذلك، لا غرابة في أن يأخذني هذا السؤال في رحلة تتجاوزه هو إلى فكرة أبعد، وإلى منهجيّة تفكّر فلسفيّ محدّدة، وإلى طريقة في قراءة النصوص وبناء الفرد في مجتمعه.

يهدف هذا الكتيّب إلى تقديم فلسفة أسمّيها "المنجميّة Mineism"، وهي ككثير من الفلسفات تتجاوز الرأي المؤسّس لها، إلى آراء أخرى في

مجالات مختلفة، وتتّخذ منهجًا تبني عليه نظرها في مجالات عديدة، كنظرتها في التعليم والتعبير الفنّيّ والتدارس الأدبيّ والفلسفيّ والنقد وبناء الفرد المتعلّم والمجتمع المتعلّم، بل وتصل إلى آراء في ماهيّة الحضارة وكيف تقاس، ومن يدري ماذا بعد! لكن هل غادر السابقون من "متردم"؟ هل تركوا قولًا لم يقولوه؟ وكيف لنا أن نتلمّس طريقًا حقيقيًّا جديرًا بالمسير فيه يكون في الوقت ذاته جديدًا؟ وهل الجدّة في ذاتها مقصد؟ ما أعانني هنا هو أنّني خلال تنقّلاتي بين الأفكار المتاحة كنت دائم الكتابة، وقد تجمّع لديّ من التراث الشخصيّ ما مكّنني من التأمّل الطويل في الأطوار الّتي مررت بها. وكان هذا التأمّل سببًا في هوس شخصيّ لديّ بمراحل التحوّل لدى الإنسان سواء أكان فيلسوفًا أو سياسيًّا أو شخصًا عاديًّا، ثمّ تحوّل هذا الهوس إلى إنعام نظر في التعليم وأثره ونظريّات البيداغوجيا، وربّما ساهم قربي المهنيّ من المدارس والمناهج في ذلك.

خلال قراءة الكتيّب ستحسّ _أو تحسين_ للحظات أنّك في لعبة باكمان الشهيرة، فأنا سأدخل مدخلًا في اليمين، ثمّ تراني وقد خرجت من الشمال، وقد يتناقض سلوكي هذا مع فكرتك عن الكلام الرصين، لكنّني أزعم أنّ لديّ منطقًا متّسقًا لن يطول

بك الأمر حتّى تفهمه، وربّما تصـــلك عدواه، بل وقد تكون أبرع منّي فيه، تمامًا كمنطق لعبة جديدة. ومع ذلك، أعدك أنّني سأخفّف من ذلك قدر الإمكان.

سأوزّع الكلام في مقالات متّصلة منفصلة، يكون أوّلها حول مشكلة الطبيعة البشريّة وعلاقتها بالسؤال الفلســـفيّ الشـــهير حول الســـعادة والحياة الجديرة بالعيش.

ثمّ سـأمرّ على الافتراضـات المؤسّسـة الّتي تبنى عليها فكرة المنجميّة، وأســـتطرد أحيانًا في بعض أفكـارهـا، في مقـال مطوّل هو روح هـذا الكتيّـب وأساسه الّذي بني عليه، وهو المقال الثاني.

وبعد ذلك سـأعرض مجاز المنجم، وسـيكون هذا المقال الثالث مخصّـــصًـــا لعرض هذا المجاز، ولن يخلو الأمر من لغة أدبيّة وتوسّع مفرط في المثال، لا أريد منه سوى تثبيت الاسم في وعي القرّاء.

ثمّ نـأتي على منهجيّة دراســـة النصـــوص الّتي أقترحها في المقال الرابع، وعلاقة المنجميّة بالأدب والفنّ والأدبيّات العلميّة، وســيظهر هنا أنّ هذا النهج نهج طبيعيّ قريب لما قد يسمّى "التعلّم الطبيعيّ".

أخيرًا، سأوضّح في المقال الخامس التقاطعات مع الفلسفات الأخرى، وأمرّ على الفروق بين ما يمكن أن يلتبس مع الآخر، وعلى ما اقتبسته وأفدته من السابقين.

وخلال المقال الرابع سأفتح الباب على أمثلة لمعالجة النصوص والأفكار بهذه الطريقة كي تتحوّل الفكرة من فكرة معقولة إلى فكرة مرئيّة يمكن الإمساك بها.

وهكذا سأكون قد تركت ما يمكن لكلّ قارئ البناء عليه بطريقة واضحة، فإذا كنت فعلًا قد تركت منهجًا يمكن تبنّيه في عقل آخر، أكون وضعت ما يمكن إطلاق تسمية "فلسفة" عليه دون توجّس أو خجل.

1 | حيوات لا حياة

إنّ مجرّد الاعتقاد بأنّه ثمّة طريقة محدّدة لعيش حياة جديرة، أو سبب موحّد للسعادة الإنسانيّة، ينطلق من فكرة قديمة متجدّدة تقول: "إنّ الإنسان له طبيعة ثابتة".

إلى أيّ حدّ يمكننا الركون إلى مصطلح "الطبيعة البشريّة"؟ فليس من شكّ أنّنا _نحن البشر_ نتشابه فيما بيننا تشابهًا عظيمًا، لكنّنا ربّما متى يكثر التشابه، نصر إصرارنا على توضيح الحدود بالنظر إلى الاختلافات.

رغم أنّ السؤال عن الحياة الفاضلة أو الجديرة بالعيش، والسعادة الإنسانيّة سؤال كامل الشرعيّة، إلّا أنّني أجد أنّ في السؤال خللًا يتسرّب إلى إجاباته بصورة قسريّة، فهو يقوم على افتراض مؤسّس يقول إنّ الطبيعة البشريّة هي العامل الحاسم في تشكيل الطبائع الفرديّة والسمات الجماعيّة.

الّذين يوافقون على هذه الفكرة، لن يجدوا مشكلة في القفز إلى البحث حول إجابة سؤال الحياة الجديرة بالعيش والسعادة، لكنّني رغم أنّني أدرك أنّ للإنسان طبيعة مشتركة فعلًا، أدرك وبصورة واضحة أنّ

الاختلافات تحظى بالتركيز الأكبر، وهي ما يولّد صورة الآخرين لدينا، وصورتنا لدى الآخرين، وبالآتي صورتنا لدى أنفسنا.

لقد علمت مسنّة من أصدقاء العائلة أنّني قلت لوالدتي "أنا أدرى بحاجتي" في سنّ متأخّرة على نطق الأطفال، ومن تلك الجملة علم أهلي أنّني لا أعاني من عيب خلقيّ يمنعني من النطق، فظلّت تستفزّني تلك المسنّة، فتناديني باسم أخي الّذي يكبرني مباشرة "سعد"، فما كان منّي إلّا أن أجبتها: "أنا لست سعدًا أنا نور".

وهذا ما رأيته بين كثير من التوائم، ازدياد التركيز على الفوارق عند ازدياد الشبه، ما يهمّش دور الطبيعة البشريّة إلى حدّ ما، وإن كان من المستحيل استبعادها من المعادلة تمامًا. ألا تدلّنا البيولوجيا على أنّ المشترك الإنسانيّ على عظمه لا يصل إلى درجة تحديد من يكون كلّ منّا! أليست الجينات المشتركة بيننا وبين كائنات أخرى تشكّل أغلبيّة جيناتنا! لكنّنا لا ننظر إلى أنفسنا كخنازير منتصبة أو كقردة صلعاء.

ليس المراد من كلامي هنا إسقاط فكرة الطبيعة البشريّة؛ فهي تظلّ هاجسًا حتّى عند من ينكرونها.

لكنّ المقصد هنا توضيح أنّ الإجابة عن هذا السؤال يجب ألّا تكون موحّدة في أغلب السياقات الّتي يطرح فيها.

أي إنّ علينا التساؤل حول الحيوات الفاضلة، لا الحياة الفاضلة وحيدة، وعن سعادات إنسانيّة لا عن سعادة الإنسان، وعن تعلّمات لا تعلم، وعن طرائق لا طريقة.

بيد أنّنا يمكن لنا أن نقتدي ببعضنا، ويمكننا إعادة النظر في أفعالنا الّتي اتّسمت بشيء من العشوائيّة لدى أوّل تطبيق عمليّ، لنحوّلها إلى عمليّة ممنهجة، مع أنّها لدى التطبيق لن تكون صورة طبق الأصل عن الصورة النموذجيّة للعمليّة كما رسمناها.

"إذا أردت أن تتعلّم الملاحة عن طريق مرافقة ربّان ماهر، فأنت لن تعيد بالضبط ما فعله الربّان في رحلتكما من الهند إلى الدنمارك، وأنت في رحلة أخرى من التشيلي إلى سنغافورة!" أنت ستفهم ما فعله الربّان، وأسبابه، ثمّ ستحاول تطبيق الجزء العمليّاتيّ منه.

أنت تعرف أنّ قواعد الشطرنج يمكن كتابتها في نصف صفحة، ورغم ذلك فإنّ كلّ مباراة شطرنج لها

مسـارها الخاصّ. وفي الوقت ذاته قد لا تتشـابه مباراتان، لكنّ لاعبي الشـطرنج المحترفين يعلمون أنّ اللعبة مليئة بالأنماط الّتي يمكن تحديدها وتعليمها. وهنا تتّضح فكرة الإمساك بالعمليّة.

ربّما سـيكون من المناسـب هنا أن يعلّق القارئ قائلًا: نعم، وهذا بالضبط ما حاول الفلاسفة الإمساك به عندما تحدّثوا عن السـعادة والحياة الفاضـلة، لكنّ السـؤال يبقى حاضـرًا: إلى أيّ حدّ نجحوا؟ فإذا كان رأيك أنّ النفعيّين نجحوا، فلا بدّ أنّك ترى الرواقيّين فشلوا في ذلك، وهكذا.

أمّا ما نراه هنا، فهو أنّ كلًّا منهم نجح إلى حدّ ما يزيد وينقص، ويبقى أن نسـلّط الضـوء على أنماط شـخصـيّاتنا الّتي يسـاهم في تكوينها أمور غير ثابتة، كالظروف، والصور الذهنيّة السائدة، وأثر التخصّص علينا، بالإضـافة إلى طبيعتنا الموروثة، وكلّ هؤلاء أصـحاب أسـهم في بنائنا نحن أفرادًا ومجتمعات، بالإضـافة إلى سـهم ما نقرؤه، وسـهم الأعراف المجتمعيّة والثقافة، والتجربة الشخصيّة... إلخ.

إذًا، قد يكون من المناسـب إعادة النظر في صـياغة الأسـئلة الفلسـفيّة الكبرى بعد اسـتبانة افتراضاتها، وإعادة صياغتها بعد توضيح افتراضاتنا

بصورة صريحة. هكذا نجد إجاباتنا الخاصّة، ونحن نبحث بين إجابات الفلاسفة والمفكّرين.

إنّ الّذي فعلناه هنا يصلح مثالًا على جانب؛ ممّا أنادي به من منهج في التعامل مع النصوص الّتي نقرؤها، وحتّى يكون المنهج واضحًا، لا بدّ من توضيح افتراضاتي، ووضعها بصورة صريحة.

لهذا فإنّ روح هذا المقالة الطويلة، أو الكتيّب الصغير تكمن في المقالة القادمة.

2 | الافتراضات المؤسِّسة

هل الأجدر بنا أن نقدّم إجابة عن سؤال الحياة الفاضلة، أم أن نقدّم منهجًا للتعامل مع هذا السؤال؟

الإجابة واضحة، فجميع ذوي الآراء المعتبرة الّذين حاولوا الإجابة عن هذا السؤال فكّروا بعمليّة لا بحدود للحياة الفاضلة. لكنّ الفرق بين محاولتنا ومحاولتهم هي أنّهم على حدّ ما وصل إلينا كانوا يحاولون القبض على جوهر الحياة الفاضلة بصياغة جملة متن تعيش أبد الدهر، وهذا ما لن نحاوله.

نحن سنفكّر في منهج. لكن، ما المنهج الّذي نقترحه هنا؟ وما الافتراضات الّتي ينبع منها هذا المنهج؟ أقترح في البداية أن ننظر في مسألة الفرادة الإنسانيّة، وهنا لا أعني تفرّد الإنسان بين الكائنات، بل أعني فرادة كلّ فرد منّا. أي إنّني أقلّب السؤال المتعلّق بالطبيعة الإنسانيّة المشتركة، لأتساءل حول ما ليس مشتركًا، فما نسبته؟ وما احتمال ألّا يكون مشتركًا مع أحد بالمطلق؟

هنا، يأتي الافتراض الأوّل: (**من المستبعد جدًّا أن تكون فريدًا بصورة مطلقة.**)

ضـمن الزمان والمكان والسـياق الّذي تعيش فيه، والظرف الّذي تعانيه، والقيم الّتي تعتنقها، وطريقة معالجتك للأمور، والسمات الشخصيّة الخاصّة بك، وكلّ ما هو فريد في تجربتك، لن تعدم أن تجد في التجربة الإنسـانيّة الممتدّة من تفيد من تجربته لقربها منك في وجه أو أكثر من الوجوه.

أمّا الافتراض الثاني، فهو متعلّق بالمجال الّذي نبحث فيه، فهل الأفضـل أن نتجمّع حول مطلب مركزيّ أو طبقة أو قضيّة نؤمن بها فقط؟ فمع أنّ هذا الحوار مهمّ جدًّا مع من يشاركوننا المنظومة القيميّة، والأسـئلة المحوريّة، يبقى أنّه من المسـتبعد أن نجد لديهم كشفًا معرفيًّا ذا تأثير حاسم، ولذلك فإنّ الحوار كثيرًا ما يكون منتجًا أكثر إذا كان مع المختلفين عنّا. ويظلّ سؤال الصدق معلّقًا ماثلًا أمامنا، فنحن ما دمنا نسـعى بصـورة جماعيّة نحو شـيء لن نعدم أن نجد بيننا من تهمّه مصلحة غير صـريحة أكثر ممّا تهمّه القضيّة الكبرى.

لذلك فإنّ الافتراض الثاني يقول: (**إنّ المدوّنة الإنسانيّة من أدب وفنّ وعلم هي منجم الإنسان.**)

إنّنا لا نعدم أن نجد في المدوّنة الإنسـانيّة فكرة نافعة، أو عاطفة نتّصل معها، أو يدًا تربّت علينا، أو

نمطًا نكتشفه، أو منظارًا يكشف لنا أمورًا خفيّة، أو مجازًا يشحذ همّاتنا، أو ملاذًا يغمرنا فيعطينا ما نحن في أمسّ الحاجة إليه من مسافة بيننا وبين ما نعانيه، أو سوى ذلك من فوائد جمّة تتحقّق للأفراد أوّلًا، ثمّ للجماعات.

قد يتذمّر بعض القرّاء هنا، وتذمّرهم لا يعوزه التبرير، قائلين: لكن أين نبحث؟ إنّ المدوّنة الإنسانيّة من أدب وأدبيّات علميّة وفنّ وغير ذلك واسعة جدًّا، ولا يمكن الإلمام بها، وهنا يعود الافتراض الأوّل ليهزّنا قائلًا: أنتم لستم بدعًا من الخلق، وليس من النادر أن تجدوا ما تفيدون منه فيما يشغلكم، أي إنّ البحث لا يجب أن يشمل كلّ شيء، فالإنسان يعرف أنّ العنصر الّذي يريد التنقيب عنه موجود في الأرض، لكن ليس عليه أن يبحث في الأرض كلّها، فهو عندما يؤسّس منجّمًا في مكان ما، ينطلق في عمله باستخراج النافع منه، ولا يقول: لا بدّ أنّ المادّة المرغوبة موجودة في مكان آخر بصورة أكثف.

وكما أنّ العناصر أقلّ من المركبات، وكما أنّ عمليّات استخلاصها أقلّ من استخداماتها، فإنّ الأنماط الفكريّة أقلّ من الأفكار، والحلول الناجعة أقلّ من المشكلات، وإنّك لا تعدم أن ترى فكرة مفيدة في نصّ يتناول موضوعًا آخر غير الّذي تريده، فإن لم

تكن الفكرة ذاتها هي المفيدة، فربّما شكل تلك الفكرة أو نمطها. لذلك، فإنّ النقل المعرفيّ، أيّ استخدام فكرة من مجال في مجال آخر، كان منذ القدم إنزيمًا من إنزيمات الإبداع مسرعًا له.

وهنا يأتي الافتراض الثالث: (**النقل المعرفيّ طريقة فهم النصّ والعالم.**)

أي إنّك مطالب لا بقراءة المعنى ونمط الفكرة في مكانها في النصّ فقط، بل وفي مكانك أنت من العالم، فقد تتعرّف على شكل فكرة في الهندسة، مثل فكرة الاستبعاد في محاولة إصلاح الأعطال، لتجد أنّها فكرة نافعة في مجال طبّيّ مثلًا، أو في مجال القبض على عوامل حلّ مشكلة حياتيّة تواجهك.

أمّا الافتراض الرابع فهو لصيق بتلك الفكرة إذ يقول: (**أنت لا تفهم الفكرة حقًّا حتّى تستعملها.**)

وبغضّ النظر عن مجال الاستعمال والتوظيف لفكرة ما، أكان نظريًّا، أو تحليليًّا، أو عاطفيًّا، أو عمليًّا، أو سوى ذلك، فإنّ كلّ مستوى من مستويات الاستعمال يفتح مستوى من مستويات الفهم كان مغلقًا دونه. وهذا إن فكّرت فيه من نافلة القول، ألا يصرّ أساتذة اللغة على أن ينشئ تلاميذهم جملًا بلغتهم

الخاصّة تستخدم المفردة المدرسة أو الأسلوب المبحوث، حتّى يطمئنّوا لفهم الطلبة ما تعلّموه؟ نعم، يمكن النظر إلى الفكرة بهذه البساطة مع أنّها أعقد من ذلك بكثير.

وجه التعقيد في ذلك هو أنّ استعمالنا فكرة ما يجب أن يكون في سياقنا نحن، حتّى يكون فاعلًا في إفهامنا الفكرة فهمًا كاملًا. وهذا مهمّ لإدراك حقيقة أنّ الفكر الإنسانيّ كائن حيّ، ينمو في جوانب، ويستغني عن أخرى فتموت، لكنّها لا تفقد أهمّيّتها بصورة مطلقة. هلّا نظرنا إلى الشجرة مثلًا، فنرى أنّها دائمة التجدّد في الأجزاء الحيّة منها من أوراق ولحاء وجذر وقمم نامية، ولكنّ لبّ ساقها قد يكون ميّتًا، بيد أنّه ما يزال ذا فائدة عظيمة للشجرة كلّها.

إنّ نظرتنا إلى الفكر الإنسانيّ تشبه فكرة نظام السوابق القضائيّة أكثر ممّا تشبه الدساتير ونصوص القوانين الجامدة، ففي الغالبيّة العظمى من الأوضاع والمشكلات والمسائل الأخلاقيّة الّتي تواجهنا، سنجد سابقة تحاكي ما نريد معالجته من جهة من الجهات، ويمكننا الاتّكاء عليها سلبًا أو إيجابًا لتحقيق فهم أعمق، ثمّ يأتي توظيفنا لما نفيده من هذه السابقة في سياقنا ليحقّق لنا الفهم الأكثر عمقًا للفكرة.

وهـذا هو الافتراض الخـامس: (**الأيض المعرفيّ من هدم وبناء علامة الحياة المعرفيّة.**)

إذًا، فتحقيق الوجود الإنســـانيّ يكون بالاتّصـــال بالأفكار الســـابقة وباســـتعمالها في الحياة من أجل تطويرها، وكأنّها مدوّنـة قانونيّـة، أو مجلّـة أحكـام عدليّة، أو مدوّنة أكاديميّة في حقل من الحقول، فكلّما قرأنا وأعدنا اســتعمال ما نجد، فأنتجنا نصــوصــنا امتلكنا هذه الأفكار، وحقّقنا صـــلة أكبر بها، وتمكّنا من الهدم والبناء. أي إنّ الأمر أبعد ما يكون عن فكرة الإحيـاء، فلا إحيـاء إلّا ويكون المقصـــود بـه إحيـاء ميّت، وهيهات هيهات. لكنّ الكائن الحيّ يتغذّى على عناصـــر يســـتخرجها من الأرض، أو ممّا يأكله من كائنات أخرى، فيكون حيًّا على الحقيقة.

كذا، فإنّ الافتراض الســـادس يقول: (**الخيال هو القمّة النامية للواقع، والمجاز هو مجاله.**)

ليس عجبًا أنّنا نحن البشـــر نقدّر الواقع وما يوجد على الحقيقة أكثر ممّا نقدّر الأفكار المجرّدة، لكنّ هذا يجب ألّا يكون نقيضًـــا للموقع العالي الذي يحتلّه الخيال والتجريد في خبرتنا، فكثيرا ما كان الخيال الإنســـانيّ رحمًا للواقع الوليد يخرج منه إلى الوجود. لكن التجريد إذا لم يكن حيًّا في مجاز ما، كالرياضيّات

مثلا بوصـــفها مجـازات لفهم العـالم أو العقـل، أو التعبيرات الأدبيّـة التي تقتـات على المجـازات، فـإنّـه يأتي على صـــورة تعريفات جامدة تعيق التفكير أكثر ممّـا تيسّـــره، فإن كـان لا بدّ منها ولو إجرائيًّا، فإنّ الأمثلة والتشـــبيهات هي ما يعطي هذا التجريد وقعًا في النفس وحياة في الواقع الذي نختبره.

أمّـا الافتراض الســـابع والأخير فيقول: (**الحقّ شذرات في الباطل، والذكاء حالة جماعيّة.**)

قد لا يكون أمرًا خلافيًّا أنّ جوانب من التفكير قد تكون فرديّةً بصـــورة مطلقة، لكنّ كثيرًا من جوانب التفكير تحتاج عقولًا أخرى، ومن ذلك التفكير اللغويّ الذي يسـتحيل عليك، دون أن تكون جزءًا من جماعة بشريّة ما تواطأت على لغة، ومنه أيضًا كلّ ما يحتاج إلى اسـتعارة أفكار من مجالات أخرى، أو يقوم على ســوابق معرفيّة أو شــعوريّة أو تطبيقية. لكنّ الذكاء حـالـة غير منظورة دون عقول أخرى تميّزه وتحتفي بـه، وكـلّ فكرة عـاليـة التركيـب محتـاجـة إلى تراث إنسـانـيّ تبني عليه، وإلى جماعة _وإن كانت متخيّلةً_ تتوجّه إليها، وجماعات تتبنّاها.

"نعم قد تكون مفكراً مبدعاً، أو شـــاعراً مفلّقاً، أو رسـاماً سـاحراً، أو مخترعاً مدهشـاً، أو عالماً خارقاً،

لكن في الحقيقة كل هذا يندرج تحت التفكير، وإذا كان التفكير سلوكاً فردياً، فالذكاء حالة جماعية، هذا ينطبق على كل مجموعة غيرت وجه التاريخ، ودونك فلاسفة الإغريق، والمسيح وحوارييه، ومحمد وصحابته، ولينين ورفاقه، لتصدّق أنّ الذكاء بطبيعته جماعيّ، وهو متطلّب حضاريّ للتغيير الحقيقيّ."

أمّا الشقّ الأوّل من الافتراض، الذي يبدو بعيدًا عن هذه الفكرة، فهو أنّ عمليّة البحث لا بدّ أن تتعثّر بكثير من الأفكار غير النافعة، وعلينا قبول ذلك والسعي إليه، فعمليّة إنتاج المعنى لا بدّ أن تمرّ بأيض معرفيّ يجري خلاله الاستغناء عن أفكار بكلّيّتها، واعتناق أخرى، ثم أخرى، وهذا هو معنى التعلّم، ثمّ إنّ وجود فكرة عظيمة عند كاتب ما لا يعني أنّ جميع أفكاره عظيمة، بل قد يعالج الإنسان جبلا من التراب لكي يمسك بحفنة من الذهب، والحكم هنا هو العقول الأخرى والتداول، فهو الذي يوصل الفكرة إلى صيغة يمكن استعمالها.

أمامنا الآن، افتراضات سبعة أوردتها في سياقاتها حرصًا على بلوغها معانيها التي قصدت. وهذه الافتراضات التي أنطلق منها، تحوي داخلها افتراضاتٍ ضمنيّةً لم أنظر لها بوصفها أمورًا تحتاج إثباتًا أو توضيحًا، وقبلت أن تكون منطلقًا لي في

رســـم منهجيّة تبحث عن حيوات فضـــلى، لا حياة فضلى وحيدة، وعن إجابات للأسئلة الفلسفية الكبرى الشـــهيرة، وهي في الوقت ذاته نظرة في التعامل مع الأدب والفنّ بطريقــة يمكن البنــاء عليهــا والحوار حولها، أي إنّها تتجاوز التلقّي الذاتيّ، وإن كانت لا تستبعده ولا تقفز عنه.

3 | مجاز المنجم

قصّة الإنسان مع الأدوات هي قصّته مع الطبيعة، وربّما تكون هي ذاتها قصّة الإنسان كلها. يستخرج حجرين بركانيّين من الأرض، ويضرب بعضهما بالآخر، حتّى ينتج شفرة، ثمّ يستخدم الشفرة في نسل الخيوط من الخشب، وتقويم عود يربطه باستعمال الخيوط إلى الشفرة فيصنع سكّينا، ثمّ يستخدم السكّين في قطع عود شجرة يكون رمحًا، ثم يصيد به حيوانًا.

ويظلّ يطوّر في أداته ويتطوّر بسببها، حتّى يحفر حفرة ليلقي بها جذوع أشجار، ثم يوصل النار إلى درجة صهر بعض المعادن لينقّيها ويشكّلها، وشيئا فشيئا يسير مع أدواته التي تتطوّر وتمرّ في عمليّة أيض، حتّى يصل في يوم ما إلى التطوّر التقنيّ الذي نراه اليوم، لأنّ الأداة تفتح بابًا على هامش الممكن، والممكن يقترح الأدوات اللازمة ليخرج من الخيال إلى الواقع.

اخترت مجاز المنجم لأنّه يكثّف قصّة الإنسانيّة وأَيْضَهَا من هدم وبناء مع موجودات الكون ومع المعارف البشريّة، وأريد أن أنظر إلى النصوص السابقة بوصفها مناجم ندخلها لاستخراج الأفكار، والسوابق الشعوريّة، والخبرات المتراكمة، في سبيل

إنضاج تجربتنا الحياتية، والاقتراب بها إلى الحيوات الفضلى التي تستحقّ أن تُعاش. وهذا المجاز يوضّح المنهج المقترح في التعامل مع النصوص التي نقرؤها أو ننتجها، كما يبيّن كيف ينوي هذا المنهج الناشئ التعامل مع الأسئلة الكبرى في عالم الفلسفة.

- **المنجم:** كلّ نصّ، أو قطعة فنّيّة، أو تجربة إنسانيّة، أو ورقة من الأدبيّات العلميّة، أو موضوع بحثيّ كاللغة، أو الفيزياء، أو سواها، أو حتّى تجربة شخصيّة نمرّ بها، هي الأرض التي ننزل إليها بأدواتنا في القراءة والتفكير باحثين عمّا ينفعنا في الحياة بصفة فرديّة أو جماعيّة، عمليًّا أو عاطفيًّا.
- **المِعْوَل:** كلّ أداة نستخدمها في فهم النصّ، وتكسيره إلى وحدات يمكن التعامل معها، والمعول يكتسب أهمّيّته من قدرته على استخراج المادّة النافعة التي تلزمنا.
- **المادّة:** كلّ نمط، أو فكرة، أو مثال، أو شاهد، أو مجاز يعيننا على التواصل مع النفس بالخيال والتفكير، والكون بالعمل والتغيير، والآخرين بالتواصل والتعبير.
- **المصباح** :يمثل البصيرة التي نستخدمها لرؤية ما هو مخفي في الظلام. المصباح يعكس

القدرة على الكشف عن الأفكار العميقة والمعاني الخفيّة في النصوص، ويساعدنا على التركيز على التفاصيل الدقيقة التي قد تغيب عن النظرة السطحية، وهو قد يكون معرفتنا بسياق الكاتب، أو نمط الحياة وقت إنتاجه نصَّه.

- **الخريطة:** كلّ دليل نتبعه من داخل النصّ، أو من خارجه لنسترشد به على أنّ المادّة المطلوبة موجودة في ذلك النصّ بالتحديد، وكلّ طريقة عمل نتّبعها في تحليل النصّ أو القطعة لتكون مفيدة لنا.
- **المجرفة:** كلّ تفكير شخصيّ حول مادّة من الموادّ داخل النصّ، لاستخلاص المادّة الخامّ المطلوبة وتحضيرها للتأمل حولها.
- **الناقل:** كما تنقل العربة أو الشريط الناقل المادّة الخامّ إلى خارج المنجم، فالحوار الذي نجريه حول نصّ من النصوص يأخذ المادّة الخامّ إلى خارج النصّ باستطرادات وتأمّلات شخصيّة في النمط أو الفكرة أو الخبرة، وقد يكون حوارًا جماعيًّا أو تأمّلات شخصيّة يقصد منها التعلّم والفهم.

- **المرجل:** يمثل عملية التنقية والتصفية، إذ يجري تحويل الأفكار الخام إلى معانٍ ناضجة وقيّمة. يعكس المرجل العمل العميق والمكثف لتحليل النصوص واستخلاص الحكمة منها، وهو هنا إنضاج المعنى، وتجريده وجعله قابلا للاستعمال وإعادة التجسيد.
- **السلّم:** يرمز إلى القراءات المتعدّدة ومستويات الفهم المختلفة للنصّ، ومستويات البحث المختلفة فيه.
- **التخليق:** إعادة استخدام الفكرة في نصّ جديد، أو في تطبيق عمليّ للفكرة، أي تجسيد الفكرة المجرّدة في سياقاتنا الحياتية نحن القرّاء، وهو نتيجة النقل المعرفيّ الحقيقيّة.

4 | كيف نقرأ؟

من الصعب أن تحدّث إنسانًا أنهى حياته المدرسيّة، فتقول له: سأعلّمك كيف تقرأ! إنّه يظنّ أنّه يتقن القراءة بالفعل، لكنّني أزعم أنّ أكثر الناس ممّن عاينت لا يجيدون من القراءة _إن أجادوا_ غير تعبير الرموز الأبجديّة إلى أصوات، والكلمات إلى دلالات، والجمل إلى معانٍ.

القراءة التي أعنيها تتجاوز هذا إلى أبعاد أعمق. أتحدّث هنا عن نوع مختلف من القراءة، عن قراءة تنتبه إلى تجاور المعاني الجزئيّة، ودور ذلك التجاور في تشكيل المعنى الكلّيّ، تنتبه إلى التكرار والترتيب واختيار الألفاظ ومواضع الإطناب والتضمين ودور الأساليب الأدبيّة، قراءة تعي مضمرات النصّ من افتراضات وضمنيّات، تسائل النصّ عن منطقه الداخليّ، وسياقه الزمانيّ والمكانيّ والاجتماعيّ، قراءة بصيرة بإيقاع النصّ وتضاغط الزمن وتخلخله فيه، قراءة تسأل القارئ: كيف يتّصل بي هذا؟ ما مداخلي إلى الفهم الحقيقيّ لعقل الكاتب؟ هل ثمّة قصد أعمق من هذا؟

وقبل ذلك كلّه تنتبه إلى كون النصّ جديرًا بجهد القراءة فعلًا، أم هو تزجية للوقت لا أكثر! فإذا استقرّ

لها أنّ في النصّ معنى خليق بأن يضيف للقارئ استنفرت أدواتها، كمن يسير في أرض مستكشفًا بعين خبيرة، فيرى لمعة ربّما تنمّ عن وجود عرق ذهب في هذا الصخر، فتنفق فيه الجهد والوقت لاستخراج ما فيه، فإذا فتّتت صخرة النصّ ذهبت تجرف فتاته لتبحث فيه عن المعادن الثمينة، وتفحصها لتتحقّق من وجود ما ظنّته ثمينًا، ثمّ تجرف منه ما تنتقي، وتنقله إلى مرجَل النفْسِ الذي يغلي بما تكابده من مسائل ومشكلات وعواطف وأخيلة، لتستعمل المادّة الجديدة في التعبير عنها.

هذه المادّة الثمينة قد تكون محض مفردة ذات دلالة كاشفة، أو ذات بناء فريد يمكن استكشاف المعنى من خلاله، أو قالب جملة أو بيت شعر، أو ربّما فكرة تضيء على وجود خفيّ عنّا؛ بسبب بعده أو بسبب اختلاف تردّد وجوده عن الطيف الذي تستقبله حواسّنا، أو ربّما تكون نمطًا فكريًّا ليس من ذخيرتنا في التفكير، أو حتّى معلومةً نافرة عن سواها مما في النصّ، أو ممّا لدينا، فسيكون لحضورها أثر مخطّط أفكارنا.

رويدك... أعرف أنّني حشدت الكثير من الأفكار حول طريقة القراءة، وأعرف أنّني لم أولِها من

الإطناب والاستغراق ما تستحقّ، فكلّ ما سبق يحتاج أمثلةً ليتّضح ويوجد في الذهن بصورة قابلة للهضم، ولذلك عليّ أن أخبرك بعض قصصي مع كلّ شكل من الأشكال، وأعتذر عن الذاتيّة التي ستظهر في هذه المقالة خلال ذلك، ولكن أنا لا أملك حقًّا سوى تجربتي الشخصيّة.

خلال التجارب التي سأرويها الآن، سأمرّ على بعض ما لم أذكره من أشكال المادّة التي علينا أن نبحث عليها في النصوص، لأنّني لم أذكر كلّ شيء، ولا أظنّ أنّه ثمّة سبيل إلى ذلك، فحتّى هذه اللحظة أنا أتحدّث عن النصّ المكتوب، ولم أدخل في طريقة قراءة المشكلات، والمسائل الرياضية، والقطع الفنّيّة، وغير ذلك ممّا أدّعي أنّ المنجميّة ستفلح فيه.

كنت صغيرًا عندما مرّ بي اسم الله (المؤمن) الموجود في القرآن، وكان عليّ فورًا أن أغوص في المفردة، إذ من المفترض أنّ هذا الاسم يطلق على من يعتنق تلك الديانة، لا على الإله فيها، وعند البحث وجدت أنّه يعني (الذي يحقّق الأمن)، فكان هذا بابًا للتساؤل حول فكرة اعتناق الديانة من الأصل، هل هي فقط التصديق بما تقوله عن الغيب، أم أنّها تتعلّق بتحقيقه الأمن لجماعته من "المؤمنين"؟

أرأيت! هي مجرّد كلمة، لكنّها لعبت دورًا في تشكيل نظرة جديدة إلى العقيدة التي نشأت فيها.

كلمة الشيطان مثلا، كانت في بنيتها ملفتة للانتباه، فما هو صرفها؟ أهي فعلان من الجذر (شاط) أم صيغة، فيعال من (شطن)؟ إنّه فرق كبير، ولما استقرّ لي أنّها جاءت من الشطن والابتعاد على غير هدًى، تغيّر فهمي لفكرة الشيطان، ولم أعد أتخيّل كائنًا بقرون وشوكة يضحك ضحكة شرّيرة، صرت أراه حالة نمرّ بها جميعًا، لا ذاتًا أرهبها.

أمّا عن تجاور المعاني، فقد كنت قرأت بيتًا يعدّ مديحًا، فلمّا قرأته أبيات القصيدة حوله علمت أنّه من أقذع أنواع الهجاء، إليك مثلا هذه الشطرة، وأترك لك البحث عن الشطرة الأخرى التي تصنع منها بيتًا من أقذر ما قيل في الهجاء، وهي لابن الروميّ، يقول: "وليس مثل خالد في صبره وجلده"، وأنا لن أكمل البيت، لكنّ إنتاج المفارقة بهذه الطريقة نبّهني على فكرة المفارقة، وعلى المعاني الكلّيّة ليست المجموع الجبريّ للمعاني الجزئيّة، وهذه الفكرة كانت حاسمة في نظرتي إلى أهمّيّة التنظيم في السياسة والعمل، كما أنّني بتّ دائمًا مهتمًّا بالسياق.

أتمنّى أنّني لم أفقدك هنا، فالقائمة طويلة جدًّا، ومهما اقتصدت في سرد هذه التجارب سيظلّ الموضوع عرضة للتشتيت، لكن دعني أذكّر بأنّني أستعرض كيف قد تغيّر القراءة العميقة فينا.

بسبب بطء قراءة كنت أعاني منه طفلًا، بقيت أفضّل السماع على القراءة، وقد أكسبني هذا الاعتياد تركيزًا لا أراه كثيرا من الناس حولي، ويندر أن يمرّ صوت بجانبي لا أصغي لما يقول بطريقة واعية، ومن ذلك أنّني سمعت خطبة طويلة، فوجدت أنّ الخطيب يقول في بدايتها ما يقول ضدّه تمامًا في نهايتها، وصرت بعدها أدوّن كثيرًا ممّا أسمع، لأجد أنّ ذوي الثقافة السمعيّة لا ينتبهون إلى هذا النوع من التناقض غالبًا، لأنّ السماع عمل متزامن، لا يتيح لك ترجّع ما قيل من قبل.

هذا الأمر أعادني للكتاب، وفضّلت أن أبذل جهدًا مضاعفًا في القراءة على أن أبذل ربعه في السماع، لأنّ النتيجة تكون مفحوصة أكثر، وأخلق ألّا تنطوي على تناقضات.

هذا الأمر ذاته دخل في تعبيري على فترات زمنية طويلة، فصرت أقلّ استغناء عن النصوص القديمة، فمع فهمي لكوني أتطوّر، خفّفَ ميلي إلى

تجنّب الرطانة غير المقصـــودة احتمالات التناقض إلى حـدودٍ مقبولـة لا أخجـل منهـا، وطوّر هـذا في كتابتي للشـــعر ونقدي له، فبتّ أنتبه إلى الشـــعراء يقولون في بيت أنّهم رأوا محبوبهم في الحلم، ثم في البيت الذي يليه أنّه يعيش الدهر، دون أن ينام!

كنت أشاهد فيلمًا وثائقيًّا لا أذكر اسمه الآن، وكان يعرض قصّـة جنس من الضـفادع مهدّد بالانقراض. الـذي يتهـدّده هو العقم الـذي يصـــيب الـذكور بين الضفادع بسبب موادّ كيماويّة تلقى في النهر.

كان المتوقّع أن تموت الضـفادع عند زيادة نسـبة التلوّث، فإذا كانت دخلت في خطر الانقراض بسـبب تلوّث بســـيط، فماذا ســـيحدث إذا تضـــاعف! لكن المفاجأة كانت أنّ الضفادع عاشت مع التلوّث الكبير أفضـــل من التلوّث القليل، إذ إنّ أنظمتها الدفاعية انتبهت لوجود هذه المادّة عندما ازدادت نسبتها.

هذه الفكرة دفعتني إلى التفكير في المسار الخطّيّ المفترض الّذي نرســـمه في أذهاننا عن التوقّعات، وكيف أنّه نموذج بدائيّ لا يشـبه طريقة عمل الكون، وبدأت أطبّق منحنيات مختلفة في ذهني عن الرســـم الخطّي الخاص بالتناسب الطرديّ والعكسيّ.

سـأكتفي بهذا القدر من أمثلة الموادّ الّتي أقنعتني بأنّ القراءة التي تكتفي بالمعنى الإجماليّ السطحيّ قراءة غير منتجة للتعلّم الحقيقيّ الذي يغيّر في نفس القارئ حقًّا.

وإنّني مطمئنّ إلى أنّك تملك الكثير من الأمثلة أيضًا التي جعلتك تنتقل من طريقة تفكير إلى أخرى، فهذا هو المسار الطبيعيّ الذي نمرّ فيه جميعًا.

فلنفكّر في المرّات التي لم تُحدث القراءة فيها تعلّمًا عميقًا، رغم أنّ النصّ مشهود له بالجودة، ولنتساءل: ما الذي حصل أو بالأحرى لم يحصل في تلك القراءة؟ وما الذي يميّز القراءة التي أثّرت في طريقة تفكيرنا عن الأخرى؟

فكيف نقرأ؟ أقترح في القراءة الفرديّة نصيحة واضحة محدّدة شاملة: **(احرص على أن تستخرج من النصّ معرفة لم تكتب بعد.)** وهذا يكون بأن تنتبه إلى أسلوب، أو إلى تطبيق المعارف على سياقات أخرى، أو التساؤل الفعّال حول ما تقرأ، أو التفكير الناقد الذي يفكّك ويركّب ما يقرأ ليخرج باستنتاجاته الحرّة.

وهذا مرتبط في الحقيقة بممارســـات قبل القراءة وأثناءها وبعدها.

قبلها:

1. احرص على أن يكون قرار القراءة واعيًـا لا أن تتورّط بنصّ فتكمله، فإذا قرّرت لدى تصـــفّح نصّ أنّك تريد إتمامه فخزّنـه في قـائمـة القراءة الخـاصّـــــة بـك ورقيًّـا أو إلكترونيًّا.
2. امســـح المقـالات بعينيك وانظر عنـاوينهـا الفرعيّـة، وتخرّص مـا قد يقولـه النصّ. أمّـا الروايـات والأفلام، فتعلّم عن أهمّيّـة القطعـة قبل منحها وقتك. صدّقني: الموادّ كثيرة ولن تستطيع قراءة كلّ شيء.
3. شـــكّل أســـئلتك الأولى، وامنح النصّ زمنًا كافيًا قبل أن تقرّر الغوص فيه أو تركه. أنا أعطي الكتاب قرابة 20 صـفحة من القراءة المستغرقة قبل أن أقرّر تركه أو إتمامه.

أثناء القراءة:

4. إذا قررت المضيّ في القراءة، فاحرص أن تحدّث الآخرين عمّا تقرؤه، فالحديث نوع من تدوين المعرفة وتنظيمها.
5. إذا كنت تقرأ مادّة علميّة أو فلسفيّة فاستخدم طريقة فاينمان في الدراسة: اقرأ لتشرح للآخرين.
6. دوّن ملاحظاتك لكلّ ما يثيرك، وابحث عنه بصورة مستقلّة، وتساءل عنه، فعادة ما تكون تساؤلاتك ذا علاقة بالقيمة الاستعماليّة لهذه المادّة في حياتك.
7. حدّد مقولات النصّ، وضعها موضع تساؤل نشط: اذهب وابحث عمّن قالوا بضدّ ما قاله الكاتب هنا، واجعل الموضوع بحثًا حقيقيّا عن المعرفة.
8. لا تخجل من التكرار، والسعي لاكتساب الأدوات التي تعينك على القراءة خلالها.
9. راقب تيّار الوعي لديك، فإذا شردت أثناء القراءة في أمر، فعلى الأغلب ثمّة صلة بينه وبين ما تقرأ، فاجعل هذا موضع تساؤل وبحث.

بعد القراءة:

10. دوّن لنفسك بعض ما يعنيه ذلك لك، ولا تقلق من كونه غير منظّم، ليكن تركيزك على أن يكون هذا أصيلا.
11. انخرط في نقاشات حول ما قرأت، أو حول ما حصّلت من مادّة واستخدمه في كلامك ونظرتك للأمور.
12. عد إلى مواضيع محسومة بالنسبة لك، وانظر إذا كانت المادّة الجديدة قد زعزعت نظرتك السابقة.
13. اكتب بتعمّق للآخرين عن تلك الأفكار، وليس بالضرورة أن يكون كلامك عن الكتاب ذاته، وهذا لا مانع منه.
14. عد إلى النصّ بعد مدّة وافحص رؤيتك حوله، وانظر: ما الذي لم تنسه منه؟ وما الذي نسيته تمامًا؟

أمّا عن القراءة الجماعيّة، فأقترح هنا نواة لعمليّة القراءة يمكن التطوير عليها بعد تجريبها، وهذا تحت اسم "مناجم القراءة".

إنّ المنجم مؤسسة في ذاته، فيه عمّال يستخرجون، وعمّال ينقلون، وعمّال يصهرون، ومستكشفون

ورسّـــامو خرائط، موجّهون للعمل التكامليّ. وقد يكون المنجم بدائيًّا في طاقته يقوم عليه عامل واحد، أو يكون فيه عدد كبير من العاملين. ولأنّه من المتوقّع أن تمتلك كلّ فلسفة نظرة خاصّة بها إلى المعرفة والتعلّم، فإنّني أضع إطارًا عمليًّا لجلسات التدارس التي تقتنع بفكرة المنجميّة في التعامل مع الأدب والتراث الإنسانيّ عمومًا.

الخطوات

1. تحديد المادّة المطلوبة: تحدّد مجموعة القراءة المشكلات التي تواجههم، مثل: ما معنى الحياة؟ كيف أتعامل مع ابني؟ كيف نحافظ على ثقافتنا؟ كيف نجعل مؤسّستنا مؤسّسة متعلّمة؟... إلخ، وتعطي لمجموعة الكشّافة أو راسمي الخرائط، وهؤلاء تميّزهم معرفتهم الأفقيّة الواسعة، وأنّهم يخوضون في كلّ المجالات، ولو كان خوضهم هذا سطحيًّا.
2. رسم الخريطة: يقوم الكشّافة بدورهم في تحديد مناطق البحث المحتملة، أي تعيين النصوص التي ستكون مناجم للبحث عن

المادّة المرغوبة، وغالبًا ما يكون هذا في خريطة ذهنية تمثّل الموضوع.

3. توزيع العمل: توزّع الخريطة الذهنية بنصوصها المختلفة على مجموعات التدارس (المناجم) المختلفة، لتبحث فيها عن الموادّ التي ترى حسب بصيرتها أنّها نافعة. وهنا يأتي دور القراءة الفرديّة لفصل أو كتاب أو فيلم. ويحرص خلال ذلك على امتلاك الأدوات المعينة على الفهم.
4. جلسة الحوار: تنقل كل مجموعة الموادّ والاقتباسات والأمثلة والتجارب والشواهد إلى المجموعة الحواريّة، بحضور المستكشفين الذين تكون مهمّتهم تدوين احتمالات جديدة للبحث، ويكون ذلك بإدارة الموجّهين الذين يحرصون على صياغة المهمّات التعبيريّة وتشكيل الأسئلة التي ستلعب دور المراجل في إعادة التخليق والاستعمال.
5. طور المرجل: يكتب الحضور تأمّلات شخصيّة حول الموادّ المطروحة، وكيف

تنعكس على حياتهم، وتجاربهم، وخبراتهم.

ولا بدّ هنا من توضيح توجيهات عامّة:

1. لا تخجل من مشاركة ما هو شخصيّ، فأنت تقدّم به للآخرين خدمة جليلة، إذ تعرض استعمالا للنمط أو الفكرة، وهذا يعطي شرعيّة لتجارب الآخرين.
2. لا تسرف في التعبير الشخصيّ خلال النقاش، فالتعبير الشخصيّ له وقته خلال الكتابة والتأمّل.
3. على الموجّه، أو من يدير الحوار أن يسمع من الحضور إجابات الأسئلة التي يطرحها، ويلزمهم بالإطار العمليّاتيّ للنقاش، فلا تتحوّل الجلسة إلى فضفضة، أو إلى خبير في مجال ما يحدّث مبتدئين فيه، دون أن يهتمّ إلى المعرفة المنقولة فعلا إليهم.
4. الإجابات غير الصائبة لها شرعيّة كاملة، ويكفي أن يشار إلى التشكيك بها.
5. تمنع الحوارات الثنائية، إذ يقول أحدهم فيردّ الآخر، ثم يعود الأول ليردّ، ثم الثاني

وهكذا. الفكرة تقال مرّة واحدة، ويمكن التعليق عليها بالاعتراض مع إعطاء الحق للمتحدّث الأوّل بتوضيح فكرته، ثمّ ينتقل الحديث إلى مشارك آخر.

6. يقبل من الموجّه أن يحوّل أحد الحضور إلى مستمع لا يجوز له النقاش إذا رأى أنّه خالف المطلوب عدّة مرّات.
7. في حال موافقة الحضور، فإنّه من الممكن تدارس النصّ بصورة منهجيّة أثناء الجلسة وعدم الاكتفاء بالقراءة الفرديّة، لا سيّما إذا كان النصّ في درجة عالية من الصعوبة. لكن الأفضل دائمًا أن يكون تعقيد النصوص متدرّجًا، فلا يحفر في نصّ لا نمتلك استخراج أدواته منه.
8. مع توالي الجلسات لا مانع من تعمّق مجموعة الدارسين في موضوع محدّد، أو نصوص تدور حول فكرة معيّنة، لكن المُوصى به هو التعرّض لعدد أكبر من الأفكار درسًا، ويترك الاستغراق للتعبير الشخصيّ والدراسة الفرديّة.

9. علينا دائمًا مراقبة العمليّة وتحسينها بما يضمن كفاءة الجلسات في التعليم والتعبير.
10. يستحسن أن تضاف جلسة تأمّليّة تكون الخامسة بين الجلسات، ينظر فيها الحاضرون إلى تعلّمهم وأيضهم المعرفيّ، ويقرؤون نصوصهم القديمة معلّقين عليها، بما تغيّر فيهم بسبب الجلسات المنجميّة.
11. من الضروريّ جدًّا أن تترك مجالًا للاطّلاع العشوائيّ والاستكشاف، وليكن نصف ساعة في اليوم مثلا، أو في أيّ وقت تخصّصه، لكن خصّص وقتًا بالفعل، ولا تترك العالم يخلق لك فقاعة خاصّة تعيش فيها، وحاول أن تطّلع على أمور لا علاقة لك بها. لماذا؟ لأنّ كثيرًا من الأجناس الأدبيّة أو العصور الأدبيّة أو حتّى الحقول العلميّة تسيطر فيه أفكار مركزيّة لا يمكنك تجاوزها، فتتحوّل الأداة الكامنة فيها إلى نوع من السجن، يفقد تفاعله مع محيطه. لذلك، فإنّ تخصيص

هذا الوقت والجهد للاطّلاع العشــوائيّ له وظيفته التي لا يؤدّيها شيء آخر.

5 | يا سارق!

هل خامرك شـــعور يقول: إنّ كلّ ما قرأته حتّى الآن في هذا الكتيّب مسروق؟ صدّقني خامرني هذا وأنا أكتبه، بل وإنّ هذا الشـــعور لم يفارقني منذ أن بدأ هذا المنهج يتّضـــح لي في طريقتي للدراســـة والاطّلاع.

والســـؤال الآن: هل هذه طريقة مميّزة تســـتحقّ اسمًا خاصًّا بها؟ وكي نجيب عن هذا السؤال لا بدّ لنا أن نبحث في ما يتقاطع معها من فلسفات سابقة عليها، ونرى إن كانت المنطقة التي تغطّيها هذه الفلســـفة في التعامل مع النصّ والحياة، تغطّيها الفلســـفات الأخرى ذات المقاربات الشـــبيهة، وأين مكمن الاختلاف.

فكرة معاملة الحياة بصفتها نصًّا، ليست فكرة فريدة فهي موجودة عند عدد من فلاســـفة اتّجاهات فلسفيّة مختلفة، ومع ذلك استحقّت كلّ فلسفة من تلك الفلسفات اسمها الخاصّ، لا سيّما وأنّ هذه الفكرة لم تكن دائمًا فكرة مركزيّة حتّى عند من ذكروها.

تقدّم الفلســـفة "المنجميّة"، كما هو مقترح في هذا الســـياق، نهجًا متميزًا لرؤية الحياة بصفتها نصًّا.

بينما تشترك في بعض النقاط مع الفلسفات الأخرى، فإنها تقدم عناصر مختلفة تميّزها. إليك مقارنة سريعة:

الهرمنيوطيقا: تركز على تفسير النصوص وإعادة تفسيرها، مع التأكيد على عملية استخراج المعاني من التجارب والنصوص الإنسانية، ويشير بعض فلاسفتها إلى إمكانيّة تفسير الحياة بوصفها نصًّا، مع أنّ التركيز الأوّل هنا هو النصّ.

المنجميّة: على غرار الهرمنيوطيقا، ترى "المنجمية" الحياة كمجموعة من النصوص التي يجب تفسيرها. ولكنها تركز بشكل أكبر على استخراج العناصر المفيدة (الأفكار، العواطف، الأنماط... إلخ) من هذه النصوص، مثل التنقيب عن الموارد القيّمة. هذا النهج ينحاز للقيمة العمليّة هنا، إذ يركز على تطبيق المعرفة المستخرجة لتحسين الحياة، ومجال تركيزه الحياة ذاتها.

التفكيكية: تكشف التفكيكية التناقضات وعدم استقرار المعاني داخل النصوص، مشيرة إلى أن فهمنا للواقع مبنيّ على اللغة والنصوص.

المنجمية: بينما تعترف "المنجمية" بالطبيعة البنائية للمعنى، فإنها أقل اهتمامًا بتفكيك التناقضات، وتركز أكثر على إعادة البناء بعد الاستخلاص، وإعادة استخدام الأفكار المستخرجة للأغراض العمليّة. فهي تركز على العملية البنائية بدلاً من التفكيك فقط، كما أنّها تتناقض في جوانب أخرى كثيرة مع التفكيكية، ومنها أنّ المنجميّة لا ترى أنّ فهمنا للواقع مبنيّ على اللغة والنصوص، بل إنّ النصوص لها مهمّة إثرائيّة، وفهمنا للنصّ قد يكون مبنيًّا على قدرتنا على توظيف المعاني في الحياة.

البنيوية وما بعد البنيوية: ترى الحياة بوصفها نظامًا من العلامات والرموز، مع التركيز على دور الخطاب والقارئ في خلق المعنى.

المنجمية: تتوافق "المنجمية" مع فكرة تفسير العلامات والرموز، ولكنها تختلف في نهجها العملي. تستخدم هذه التفسيرات لاستخلاص رؤى قابلة للتطبيق وتطبيقها في سياقات مختلفة، مما يعزز التفاعل الديناميكي مع نص الحياة وإعطاء حياة للنصّ.

نظرية الهوية السردية: ترى نظرية الهوية السردية أن الأفراد يشكّلون هويّاتهم من خلال القصص التي يروونها عن حياتهم.

المنجمية: في حين تعترف بالسرد كجزء من الهوية، فإن "المنجمية" توسع هذا المفهوم بمعاملة هذه السرديات كمصادر لرؤى قيمة. تشجع على استخراج هذه القصص للعثور على الأنماط والدروس التي يمكن تطبيقها لتحسين الحياة الشخصية والجماعية.

الفينومينولوجيا: تركز الفينومينولوجيا على التجربة الحية وتفسير هذه التجارب لمنحها معنى.

المنجمية: تضمّن "المنجمية" عملية التفسير الفينومينولوجي، لكنها تركز على الاستخلاص والتطبيق العملي للرؤى من هذه التفسيرات. ترى التجارب كنصوص يتم التنقيب فيها لاستخراج عناصرها المفيدة.

أمّا أقرب الفلسفات فهي **الإنسانيّة الأدبيّة** التي تؤكّد أهمية الأدب في فهم الحالة الإنسانية، مشيرة إلى أن قراءة الأدب يمكن أن تعطي رؤى عن الحياة، والحياة تعطي منظورات إلى النصّ.

لكنّ الفارق الذي يميّز المنجميّة هنا هي أنّها لا تقصر مجال بحثها على الأدب، وأنّها تتعامل ببراغماتيّة واضحة مع الأفكار والأنماط والتجارب حسب قيمتها العمليّة، وأنّها تبتعد عن الفردانيّة في افتراضاتها المؤسّسة، كما أن مجال تركيزها هو الحياة العمليّة، ويلعب الأدب فيها دور وسيلة للتواصل الإنسانيّ، وأحد المناجم الكثيرة التي تبحث فيها المنجميّة عن وحدات المعنى ومادّته، بالإضافة إلى نظرتها في النقل المعرفيّ بين التخصّصات المختلفة.

فوق ذلك كلّه إليك بعض الأمور الأعمق التي تميّز فكرة المنجميّة عن سواها:

أوّلًا: هي مقاربة للنصوص والعالم تضع افتراضات أولى، ثمّ تفتح الباب على مصراعيه لبنائها بطريقة مختلفة لدى كلّ مجموعة أو منجم.

ثانيًا: إنّ مقاربة المنجم في القراءة الجماعيّة لها قيمة علاجيّة للأفراد والجماعات لتحقيق تواصل وفهم أعمق لحياتهم.

ثالثًا: إنّ المنجميّة تنظر في أدوات العقل الإنسانيّ، وتسعى لتنظيمها وتسميتها وتنميتها، وجعل التعلّم

محسوسًا، فتعمل من خلال البحث والفهم والاحتكاك بالنصوص من جهة، ومن جهة أخرى ترى أنّ الفهم الحقيقيّ غير ممكن، إلّا بإعادة استخدام الموادّ المستخرجة.

رابعًا: لا تمانع المنجميّة من استعارة أيّ مادّة من أيّ فلسفة، وهي تنظر إلى الموادّ نظرة براغماتيّة، ورغم أنّها تتقاطع كثيرا مع فلسفات أخرى، إلّا أنّها تجعل محور الافتراضات الأولى الإنسان ذاته، ثمّ تهتمّ بطريقة تفاعل الإنسان مع النص والحياة، ومع النصّ بوصفه حياة، والحياة بوصفها نصًّا، فترى في بعض الأفكار المستعارة من فلسفات أخرى أدوات للعقل الإنساني.

خامسًا: لا تدّعي المنجميّة امتلاك أيّ حقيقة، سوى أنّها تعفي افتراضاتها من المساءلة لغايات عمليّة فقط، فهي نهج تعلّميّ أكثر من كونها منظورًا لرؤية العالم. في هذا، هي تختلف عن فلسفات قد تكون أقدر منها على اكتشاف الأدب، وأقدر على اكتشاف العالم، وأقدر منها على التغيير، لكنّها لا تمانع الإفادة من أيّ فلسفة أو نصّ فلسفيّ بصفته منجمًا آخر يزيد في الموادّ والأدوات.

نستطيع إذًا أن نقول إنّ هذه الفكرة موجّهة للإنسان العاديّ أكثر من كونها موجّهةً إلى الفلاسفة والأدباء، وتحاول إيجاد ميكانيكيّة لبناء الفرد والمجتمعات، وتحسين تجربتهم في الحياة التي تبنيها فلسفات وأفكار أخرى، وتقدّم إطارًا عمليًّا لاستكشاف الأدب، وإطارًا أدبيًّا وفكريًّا لاستكشاف الحياة، وتطوّر أدوات التفكير، وتعنى بتسمية الأنماط وإعادة استعمالها.

وإنّ افتقار هذا النهج إلى مقولات صلبة يجعله مرنًا، وربّما تكون هذه نقطة ضعفه التي قد تجعله سائب المفاصل، وتسهّل تجاوزه إلى غيره، فهذا النهج يفضي إلى مناهج وفلسفات وآداب أخرى بالضرورة، ولا يضمن تجانس متّبعيه، بل ويقبل اختلافاتهم التي قد تصل إلى أن تكون اختلافات جذريّة، لكنّه يقدّم إطارًا للبناء والنقاش وجعل التعلّم ملموسًا واستعمال الموادّ المستخرجة من النصوص في إنشاء المعاني الذاتيّة والاجتماعيّة ذات الشخصيّة المستقلّة.

إذا نظرنا للكيفيّة التي يجري بها تجميع الأفراد حول نهج ما، نجد أنّ فلسفات كثيرة عنيت باستنساخ نفسها داخل أعضائها، ما جعلها تجمد إلى حدّ بعيد،

وأوقف تطوّرها وعطّل أيضـــها المعرفيّ، ففقدت فاعليّتها رغم كونها تمنح العقل أدوات عظيمة الفائدة.

لكنّ هـذا النهج خليق _في رأيي_ أن يبني فردًا مرنًـا لا يكفّ عن التعلّم، وينـأى بنفســـه عن ادّعـاء امتلاك الحقيقـة كـاملـة، ولا يعطّلـه ليعيش في عـالم متخيّـل من المُثُـل والتحليلات القـديمـة، ويجبره أن يكون حيًّـا في الحيـاة يبني ويهدم ويســـتعمل الموادّ المستعارة من غيره.

كمــا أنّ فكرتي الاطّلاع العشـــوائيّ، والاطّلاع الممنهج كفيلتـــان بتحقيق قيمـــة علاجيّـة للنفس الإنســانيّة، فالتعرّض للأنماط المختلفة يمنح الإنســان ســـعة لا يجدها في حياتـه المحدودة، ويطلق عنان خيـالـه ليكون محرّكـه للتغيير، وقمّـة وعيـه النـاميـة، ويعطيـه اعتيـاد النقل المعرفيّ مرونـة ذهنيّـة هـائلـة، ويقوّي قدراتـه على التعامل مع المجاز واكتشــــاف المعاني الدفينة.

ثمّ إنّ هذه الفلســـفة _مثل فلســـفات أخرى كثيرة غيرها_ لا تمانع مشاركة متّبعيها مع فلسفات أخرى، فقد تكون رواقيًّا ومنجميًّـا، وقد تكون مـادّيًّـا جدليًّـا ومنجميًّا... إلخ.

وتبقى التجربة العمليّة هي الحكم على كون هذا النهج في دراسة الأدب، وإكسابه قيمة استعماليّة، وتعظيم قيمته التداوليّة، وتحسين تجربة الحياة الفرديّة والجماعيّة، وبناء الفرد والجماعة فيها، نهجًا خليقا بالحياة.

وبعد، فإنّ هذا الكتيّب/ المقال المطوّل كان مجرّد اقتراح قائم على تدوين طريقة التعلّم، والتأمّل فيها، وليس له حياة إلّا بقدر ما يوضع في إطار الممارسة، ويتعرّض للبناء والهدم ليكونا أيضه المعرفيّ وحياته الواقعيّة.

بدأ في 2024\6\11